مقياس السيميولوجيا العامة

ماستر1 سمعي بصري

الأستاذ زياد اسماعيل

المحاضرة الثانية

. موضوع السيميولوجيا:

كل التعاريف السابقة لمفهوم السيميولوجيا أنها جميعها تتضمن مصطلح "العلامة" (Le signe) وهذا مؤشر واضح على أن العلامات وأنساقها هي الموضوع الرئيس للسيميائيات. وهذا ما أكده جون دوبوا حين قال : "السيميولوجيا ولدت انطلاقا من مشروع دي سوسير. وموضوعها هو دراسة حياة العلامات في كنف المجتمع"[1]. وقد بينت جوليا كريستيفا (Julia Kristeva) موضوع السيميائيات حين قالت: "إن دراسة الأنظمة الشفوية وغير الشفوية –ومن ضمنها اللغات بما هي أنظمة أو علامات تتمفصل داخل تركيب الاختلافات- هي ما يشكل موضوع علم أخذ يتكون، ويتعلق الأمر بالسيميوطيقا"[2]. ومن هنا ندرك موضوع السيميائيات، إذ "تهتم بالعلامة من حيث كنْهُها وطبيعتها وتسعى إلى الكشف عن القوانين المادية والنفسية التي تحكمها، وتتيح إمكانية تمفْصُلها داخل التركيب"[3]. تُرى ما العلامة ؟ وما أنواعها ؟، تُعْزى صعوبة تعريف العلامة تعريفا موحدا قارا إلى "الخلفيات الفكرية التي يُسْتَنَد إليها"[4] في التعريف؛ وهي خلفيات إبستمولوجية ونظرية تختلف من معرِّف إلى آخر. إن هذه الاعتبارات التي تجعل صياغة تعريف واحد للعلامة أمرا عسيرا، لم تمنع الباحثين والنقاد من الاجتهاد في تعريف العلامة. وسنحاول في هذا الصدد تقديم بعض التعريفات التي عُرِّف بها مفهوم العلامة عند الغربيين خاصة.

إن العلامة (أو الدليل) عند سوسير كيان سيكولوجي مجرد قوامُه عنصران متلازمان (دال ومدلول)، يقول "العلامة اللسانية وحدة نفسية ذات وجهين... وهذان العنصران مرتبطان ارتباطا وثيقا، ويتطلب أحدهما الآخر... ونطلق على التأليف بين التصور (Concept) والصورة السمعية (Image acoustique) العلامة. ونقترح الاحتفاظ بكلمة "علامة" (Signe) لتعيين المجموع، وتعويض التصور "بالمدلول" (Signifié) والصورة السمعية "بالدال"[5]"(Signifiant). ويَقصد سوسير بالدال (أو

---

[1] -Jean Dubois et Autres : **Dictionnaire de linguistique** ;LibrairieLAROUSSE ; Paris ; 1973 ; P 434

[2] -J. Kristeva : **Le langage cet inconnu** ; coll. Points; Paris; 1981; Partie 3; P 292.

[3]- محمد إقبال عروي: **السيميائيات وتحليلها لظاهرة الترادف في اللغة والتفسير**، مجلة "عالم الفكر"، الكويت مج 24، ع 3، 1996، ص 191.

[4]- حنون مبارك: **دروس في السيميائيات**، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، 1987، ص 37.

[5] -Ferdinand De Saussure : **Cours de linguistique générale**, éd Payot ,Paris, 1972, P: 98-99.

الصورة السمعية) الانطباع النفسي للصوت، في حين يقصد بالمدلول (أو التصور) التمثيل الذهني للشيء. ويرى سوسير أن العلاقة بين وجهي العلامة لا تقوم على المشابهة والمناسبة، بل تقوم على الاعتباط. ومن هنا، فإن مفهوم العلامة عند سوسير مفهوم ضيق، لأنه يجعل علاقة الدال بالمدلول اعتباطية (Arbitraire) مستثنيا من ذلك ما كان رمزا (Symbole) أو إشارة (Signal). ثم إن سوسير أهمل علاقة العلامة بالواقع، وأوضح أن قيمة العلامة إنما تكمن في علاقتها بما يجاورها من العلامات الأخرى.

وإذا كان تعريف سوسير للعلامة تعريفا تجريديا، فإن تعريف ميخائيل باختين (Mikhaïl Bakhtine) يرتبط أشد الارتباط بالفعل السيميائي، لغويا كان أم غير لغوي. إذ يرى أن العلامة تتناسب والإيديولوجيا، فحيث توجد العلامة توجد – بالضرورة- الإيديولوجيا. وليس كل علامة إيديولوجية ظلا للواقع فحسب، وإنما هي –كذلك- قطعة مادية من هذا الواقع. إن العلامات (أو الدلائل) لا يمكن أن تظهر – حسب باختين- إلا في ميدان تفاعل الأفراد؛ أي في إطار التواصل الاجتماعي. وبذلك، فوجود العلامات ليس أبدا غير التجسيد المادي لهذا التواصل.

ومن هنا، يخلص باختين إلى ثلاث قواعد منهجية، هي :

* عدم فصل الإيديولوجيا عن الواقع المادي للعلامة.
* عدم عزل العلامة عن الأشكال المحسوسة للتواصل الاجتماعي.
* عدم عزل التواصل وأشكاله عن أساسهما المادي.

ويعرف أمبيرطو إيكو (Umberto Eco) العلامة بأنها "حركة (geste) تستهدف تحقيق التواصل ونقل معنى خاص أو حالة شعورية لباثّ إلى مستقبِل[6]. ويميز إيكو في كتابه"نظرية السيميوطيقا" بين الدلائل الطبيعية والدلائل غير القصدية... الخ.

وتناول بيرس العلامة في سياق منطقي دقيق يعتمد كثرة التفريعات والتقسيمات. مما يجعل فهم مفهومه للعلامة أمرا صعبا. وإذا كانت العلامة عند سوسير ثنائية الطابع، فإنها من وجهة نظر بيرس "علاقة ثلاثية بين ثلاث علامات فرعية تنتمي على التوالي إلى الأبعاد الثلاثة للممثِّل والموضوع والمؤوّل"[7]. إن مفهوم العلامة في سيميوطيقا بيرس متسع، بحيث يشمل –إلى جانب العلامات اللسانية- العلامات غير اللسانية.

تهتم السيميائيات بدراسة الأنساق الدلالية؛ أي مجموع العلامات التي تنسج فيما بينها شبكة من العلاقات الاختلافية والتعارضية حتى تضطلع بتأدية وظائف دلالية

---

[6] -U. Eco: **Sémiotique et philosophie du langage**, Traduit par MyriemBouzaher, Press Universitaires de France, Paris, éd 1 (1988), P 20.

[7]- جيرار دولودال: **السيميائيات أو نظرية العلامات**، ترجمة عبد الرحمن بوعلي، مطبعة النجاح الجديدة، ط1،الدار البيضاء، 2000، ص 21.

متميزة بين مرسل ومتلق. ويقسم روسي –لاندي هذه الأنساق إلى قسمين كبيرين، هما :

أ) أنساق دلالية طبيعية: وهي تلك الأنساق التي توجد في الطبيعة. وتتسم بكونها غير مؤسسية، إلا أن الإنسان وظفها داخل مملكة العلامات؛ أي إنه أسند إليها دلالات مخصوصة.

ب) أنساق دلالية اجتماعية: وهي تلك التي تمتاز بكونها مؤسسية؛ أي قائمة على نوع من المواضعة الاجتماعية، لأنها من نَتاج عمل الإنسان. وقد قسمها روسي-لاندي إلى صنفين، هما :

* **أنساق دلالية اجتماعية لفظية**: ويعرفها الرجل بأنها "تلك الأنساق التي لها لغات ولها خصوصياتها المتنوعة وإعدادات مثل الأنواع السننية. وتقوم هذه الأنواع السننية على التمييزات التي يحدثها الإنسان في مادة الصوت".

* **أنساق دلالية اجتماعية غير لفظية**: ويعرفها بقوله: "تلك الأنساق التي لا تستعمل أنواعا سَننية قائمة على أصوات متلفَّظ بها، ولكنها تستعمل أنواعا سننية قائمة على أنماط أخرى من الأشياء".

وقد قسم إيكو الأنساق الدلالية إلى ثمانية عشر نوعا بالاستناد إلى معيار ثقافي محض. فالأنساق –في نظره- كلها ثقافية، ترتب انطلاقا من أقلها ثقافيا إلى الأشد تعقيدا. وأول هذه الأنساق التواصلية ما أسماه إيكو "سيميوطيقا الحيوان" (Zoosémiotique)؛ وهي تعنى بالسلوكات المتصلة بالتواصل داخل الجماعات غير الإنسانية. في حين تعد الخطابة (La rhétorique) آخر هذه الأنساق وأكثرها تعقيدا من الناحية الثقافية.

وإذا كان إيكو قد فصل القول في الأنساق الدلالية وأفاض في تفريعاتها، فإن مدرسة طارتو (Tartu) السوفياتية قد اقتصرت على تقسيم هذه الأنساق إلى قسمين كبيرين، هما :

* أنساق مُنَمْذِجة أولية (Systèmes modelants primaires): وهي الأنساق اللفظية.

* أنساق مُنَمْذِجة ثانوية (Systèmes modelants secondaires): وهي مبنية على الأنساق الأولى، وتُدْرَج ضمن هذه الأنساق الأساطير والدين والشعر والفنون بعامة.

ولعل أشهر التقسيمات وأجودها ذلك التقسيم الذي قدمه ميتز، حين قسم السيميوطيقا إلى لفظية (Transverbale) وغير لفظية[8](Non-verbale). ونجد الشيء نفسَه عند برنارد توسان (Bernard Toussaint) التي قسمت السيميولوجيا إلى لسانية وغير لسانية... وبصورة أجلى، فإن العلامات نوعان، هما :

---

[8] -Christian METZ : **Essais sémiotiques**, Ed KLINCKSIECK, Paris, 1977, P 12

أ- العلامات اللسانية (أو اللفظية): ويقصد بها الكلام المنطوق وعلامات الكتابة أو الحروف (Graphèmes) بأي لغة كانت.

ب- العلامات غير اللسانية (أو غير اللفظية): وهي التي تقوم على أنواع سننية أخرى غير الأصوات والحروف. ويمكن أن نقسمها إلى علامات عضوية مرتبطة بجسم الإنسان (مثل: حركات الجسم وأوضاع الجسد والعلامات الشمية والسمعية والذوقية...)، وعلامات أدَاتية (Instrumentales) تحيل على أشياء خارجة عن العضوية الإنسانية (مثل: الملابس والموسيقى وإشارات المرور...).

وعادة ما تُعْطَى الأولوية للعلامات اللسانية التي تقوم على اللغة (Langage) أو الكلام (Parole)، يقول سوسير: "فاللسان (أي اللغة) عبارة عن نسق من العلامات التي تعبر عن الأفكار ومن هنا، يمكن مقارنته بالكتابة وبالأحرف الأبجدية عند المصابين بالصمم والخرص، وكذلك مقارنته بالطقوس الرمزية، وبأشكال الآداب وسلوكها، وبالإشارات المتعارَف عليها عند الجنود، وغير ذلك. إلا أن اللسان هو أهم هذه الأنساق جميعا"[9].

ويعتبر يوري لوتمان (Iouri Lotman) نسق اللغة هو النسق الأولي، في حين يجعل كل الأنساق الدلالية غير اللغوية ثانوية. معنى هذا أن ثمة هرميةً في الأنساق الدلالية، بحيث تفضَّل الأنساق السيميوطيقية اللغوية / اللسانية على غيرها من الأنساق. وذلك لاعتبارات ثلاثة على الأقل؛ أولها أن اللغة هي النسق الدلالي الذي حظي بعناية كبرى، إذ احتفل به الدارسون احتفالا واسعا، وعالجوه من شتى زواياه (أصوات، صرف، تركيب، دلالة)؛ مما جعله مستوْعِباً –في دلالته- مختلِفَ الأغراض والحاجات الاجتماعية للإنسان. ويكمن الاعتبار الثاني في كون المادة الأولية التي تتشكل منها اللغة (وهي الأصوات) عبارة عن أشياء ينتجها جسم الإنسان. فهي –إذاً- داخل الجسم وخارجه. وعليه، فهي ذات طابع شمولي. ويرتبط الاعتبار الثالث بالسيطرة والتوجيه الإيديولوجيين. ذلك بأن اللغة –من بين كل الأنساق- أداة متميزة في يد السلطة. وبما أن العمل نوعان؛ فكري ويدوي، فقد تعارضت الأنساق اللسانية مع غير اللسانية؛ فمثلت الأولى الجانب الفكري ومثلت الثانية الجانب اليدوي. مؤدَّى هذا، أن من يمتلك اللغة هو من يمتلك الفكر وحق التوجيه والسيادة، ومن يمتلك الأنساق الأخرى هو من لا يمتلك غير واجب التنفيذ... ومهما كان الأمر، فإنه يمكن أن نلمس صلاتٍ بين اللغة وغيرها من الأنظمة السيميوطيقية. ومن المؤكَّد أن لكل من النسق اللفظي والنسق غير اللفظي أهميته التي لا سبيل إلى إنكارها.[10]

4. علاقة السيميولوجيا بالعلوم الأخرى (اللسانيات خصوصا):

---

[9] -F. De Saussure : op. Ibid., P 33

[10] -Tzvetan Todorov et Oswald Ducrot :op. Ibid:p109.

مما لا شك فيه أن للسيمائيات علاقات بحقول معرفية أخرى. إذ سبق لنا أن رأينا –مع سيوسير- العلاقة القوية بين علم السيميولوجيا وبين السيكولوجيا من جهة، وبينه وبين السوسيولوجيا من جهة ثانية. كما أن للسيميولوجيا روابطَ مع أنواع أخرى من مجالات التفكير، حيث يقول جان كلود كردان: "من المؤكد أن علم السيميولوجيا هو التقْليعة الراهنة، إذ لا تمر شهورٌ دون أن نعثر على إحالات جديدة تشير إلى العلائق التي يقيمها مع شتى أنواع مجالات التفكير التي كانت تبدو إلى حد الآن في غير حاجة إليها: علم النفس، النقد المسرحي، التحليل الأيقوغرافي (علم الصور)، دراسة الأساطير، بل حتى تقنيات التوثيق..."[11].

لقد ذهب دو سوسير إلى أن اللسانيات جزء من علم عام هو "السيميولوجيا". يقول: "ولا تمثل اللسانياتسوى فرع منه، وستكون القوانين التي تكتشفها السيميولوجيا قابلة للتطبيق في مجال اللسانيات، التي ستظل مرتبطة بمجال محدد داخل مجموع الوقائع الإنسانية، أما موقع السيميولوجيا الدقيق، فسيناط تحديده بعالم النفس"، وإذا كانت السيميائيات في نظر سوسير تستوعب اللسانيات على مستوى الموضوع، فإن اللسانيات بالمقابل تقدم للسيميائيات نموذجا منهجيا عليها أن تقتدي به فاللغة تقد من جهة وأكثر من أي شيء أخر أساسا يساعد على إدراك طبيعة المسألة السيميولوجية ولكن لطرح هذه المسألة السيميولوجية بكيفية مرضية، ينبغي أن تدرس اللغة في حد ذاتها، فدراسة النسق اللساني دراسة محايثة إذن من شأنه أن يقدم كبير العون لعلم السيميائيات، لأن اللغة هي النسق التواصلي الأكثر تداولا، بل سيذهب سوسير إلى ما هو أبعد، وذلك حين أأعتبر أن علم اللسان هو النموذج الذي ينبغي أن تتأسس السيميائيات على منواله، وقد ترتب عن هذا أن بوئت اللغة مكانة متميزة بين أنظمة العلامات يقول " أنالعلامات التي تتميز بالاعتباطية المطلقة تحقق أكثر من غيرها العملية السيميولوجية، ولهذا السبب فإن اللغة هي أكثر الأنظمة التعبيرية تعقيدا وانتشارا هي أكثرها تمثيلا للعملية السيميولوجية، ومن هذا المنطلق يمكن أن تصبح اللغة النموذج العام لكل السيميولوجيات بالرغم من كونها نسقا خاصا فحسب" والملاحظ بهذا الصدد أن سوسير قصر اهتمامه على اللغة، في حين لم تحظ منه النسقة الأخرى إلابإشارات عابرة، فهو لم يحاول حصرها، ولم يقدم أي معيار لتحديد طبيعتها[12].

وفي المقابل، يرى بارث أن اللسانيات أصل والسيميولوجيا فرع. يقول إن "اللسانيات ليست جزءا من النظرية العامة للعلامات... إن السيميولوجيا جزء من اللسانيات"[13].

---

[11]- جان كلود كردان : **التحليل السيميوطيقي والأدب، تر: عبد الرحمن طنكول**، مجلة (دراسات سيميائية أدبية لسانية)، فاس، عدد 1، 1987، ص 30.

[12]- محمد التهامي العماري: **مرجع سبق ذكره**، ص ص 16/15.

[13] -Roland Barthes **: Eléments de sémiologie**, Revue "Communications", N° 4 ,1964 ,P 92

وحجته في ذلك أن العلامات غير اللفظية الدالة لا تستطيع الاشتغالدون سند من اللغة، فهو يعترف بكون " الأشياء والصور والسلوكات تؤدي إلى دلالات، وهي تفعل ذلك بامتياز، ولكنها لا تقوم بذلك بشكل مستقل أبدا، فكل الأنساق السيميائية تمتزج باللغة"، لتوضيح هذه الأطروحة يقدم بارث بعض الأمثلة من حقل الموضة ومجال الصورة، فاللباس يحمل دلالات متنوعة، بحيث يصح الحديث فيه عن خطاب الموضة، لكنه لا يفعل ذلك إلا بفضل واسطة اللغة يقول " هل يستطيع اللباس لكي يدل الاستغناء عن كلام يصفه ويعلق عليه، ويمنحه دوالا ومدلولات وفيرة، حتى يصبح نسقا من الدلالات؟ إن التواصل الإنساني رهين باللغة،وليس بوسع أي عملية سيميائية أن تتجاهل هذه الحقيقة"، وينطبق الأمر ذاته على الصورة، فهي مصحوبة باللغة معظم الأحيان في شكل عناوين أو هوامش أو تعاليق... تدعم وظيفتها الدلالية، بل يذهب بارث إلى ما هو أبعد حين يقرر " من الصعب أكثر فأكثر تصور نسق من الصور أو الأشياء تستطيع مدلولاته أن توجد خارج اللغة، فلا وجود للمعنى إلا عبر اللغة.

قد يعجب القارئ لهذا الموقف الصادر عن باحث معروف باستقصاء العديد من أنسقة العلامات والبحث عن خصوصياتها وآليات اشتغالها مثل الصورة الموضة والهندسة المعمارية والإشهار، وقد أثارت هذه الأطروحة حول صلة السيميائيات باللسانيات جدلا كبيرا، إذ تجند باحثون كثيرون لدحضها وتفنيدها ساعين إلى البرهنة على أن الأنسقة السيميائية الأخرى تستطيع الدلالة بصفة مستقلة. فالملاحظة التي أوردها أعضاء مدرسة لييج لدليل على ذلك، وتتلخص هذه الملاحظة في أن إطلالة بسيطة على كتب الرياضيات والفيزياء والكيمياء والتكنولوجيا، تثبت أنها مليئة بالرسوم والصور وهي رسوم وصور لا يصح الاستغناء عليها، والاكتفاء بالخطاب اللغوي[14].

بناء على هذه الملاحظات تصبح أطروحة" بارث " مجرّد افتراض لا يمنع من قيام افتراضات مخالفة تنطلق من أسس مغايرة، كما نستخلص بأنّ دوال اللّسان تتخذ في الرسالة طابعا خطّيا حيث تدرك حسب نظام تحدّده بنية الجملة، فإنّ دوال الشفرة الأيقونية تنتشر في فضاء الصورة إذ أنّ إدراك عنصر من عناصرها لا يتمّ قبل العناصر الأخرى ضرورة، فالبدء بهذا العنصر عوض ذاك مسألة متروكة لاختيار المتلقي، ومن ثمّ فإنّ الرسالة اللسانية تظلّ حبيسة قواعد النّحو والتداول خلافا للرسالة البصرية التي لا تخضع لقواعد تركيبية صارمة، إضافة إلى أنّ عناصرها تدرك بشكل متزامن ثمّ إن الرسالة اللغوية تقبل التفكيك إلى عناصر يقوم المتلقي

---

[14]- محمد التهامي العماري: مرجع سبق ذكره، ص ص 19/17.

بإعادة تركيبها ليتحصل له معناها، فهي إذن تتركّب من كلام، والكلام من جمل، والجمل من كلمات، والكلمات من مقاطع وحروف[15].

[15] حنفيبنعيسى،محاضراتفيعلمالنفساللغوي،بط،الشركةالوطنيةللنشروالتوزيع،الجزائر1980،ص64.